(3)

الأسطورة والتحليل النفسى

obeikandl.com

obeikandl.com

**** تمهيد**

لم تعد الأسطورة مجرد قصة تروى وتشير إلى مغزى غالباً ما يكون أخلاقياً، وإنما بدأت تتخطى حدود هذه النظرة البسيطة المباشرة لتتحول إلى مؤشر حضارى يتعامل مع الوجود الإنسانى فى انتشاره مكانياً واستمراره زمانياً [110]. والأسطورة إذا توقفت عند حدود القصة المباشرة التى ترويها تحولت إلى أداة تسلية عابرة تفقد الباعث الأساسى على الاهتمام بها والإبقاء عليها عن طريق التسجيل أو الرواية من جيل لآخر (وهذا أمر حرصت عليه المجتمعات القديمة كل الحرص، ويشهد على ذلك الواقع التاريخى). ومن هنا ارتبطت الأسطورة بالتطور العام للعقل والحضارة الإنسانية عموماً .

والأسطورة بوصفها نتاجاً للخيال والذكاء البشرى كان من الصعب أن تظل أسيرة إطار جامد، ولكنها تغيرت واختلفت النظرة إليها باختلاف ما حصله الإنسان من معارف فى الزمان والمكان؛ وكما قال "باشلار" [111]: "إن هذا قد اتضح – بصفة بخاصة – فى ارتباط الأسطورة بالفن الدرامى بالذات" [112]. فالأسطورة تغطى كل مساحة النفس التى اكتشفها علم النفس الحديث؛ ومن ثم فهى بمثابة خط حياة وقدر مرسوم، وتمثل تطور هذه النفس وكل الصراعات الداخلية التى تعتلج فيها، مما يجعلها أصلح ما تكون كموضوع درامى أصيل.

وفى إطار ذلك، اتجه المحللون النفسيون – وعلى رأسهم فرويد[113] – لدراسة الأسطورة دراسة علمية تجريبية، فلم تعد مجرد واقعة منعزلة؛ بل تم الربط بينها وبين ظواهر معروفة يمكن دراستها دراسة علمية. وتعامل معها "فرويد" معاملة الطبيب لمرضاه (بوصفها ظاهرة مرضية يمكن اكتشاف عللها) من منطلق إيمانه بوجود تماثل بين حياة البدائيين النفسية والمصابين بأمراض نفسية[114]. وكان مقتنعاً – كل الاقتناع – بوجوب البحث عن المفتاح الوحيد للأسطورة فى الحياة الانفعالية للإنسان فحسب، والتى تتعلق بالمظاهر الحركية والميول والرغبات؛ و

تعتمد على غريزة أساسية لا يمكن دفعها. لذلك رأى أن ما يتطلبه البحث هو تحديد طبيعتها وخصائصها .

لكن "فرويد" لم يعتقد فى إمكانية إرجاع كل الانفعالات إلى علل كيميائية وفسيولوجية، بل رأى مواصلة وصف الظواهر الآلية للانفعالات بأنها ظواهر نفسية؛ مع مراعاة عدم الخلط بين الحياة النفسية والحياة الواعية [115]. فاللوعى مجرد جزء صغير من الحياة النفسية، وهو لا يستطيع كشف ماهية هذه الحياة؛ بل قد يخفيها ويحجبها. لذلك، فإن الرجوع إلى اللاوعى يعد خطوة أساسية لمناقشة مسألة الأسطورة ودورها فى حياة الإنسان النفسية.

هنا فتح "فرويد" باباً واسعاً لم يغلق أمام التفسير النفسى للأسطورة، وتابع الرحلة بعده تلاميذه وناقدوه من أمثال "كارل يونج" [116] الذى رأى أن كل المحاولات التى بذلت لتفسير الأسطورة، لم تساهم فى فهمها، بل – على العكس – زادت فى الابتـــعاد عن جوهـــرها وزادت من حيرتنا نحوها [117]. وهو يتابع "فرويد" فى النظر إلى الأسطورة بوصفها نتاج "للاشعور"، لكنه يختلف معه عندما يقرر أن "اللاشعور" – الذى تنتج عنه الأسطورة – هو "اللاشعور الجمعى" Collective Unconscious الذى يحوى التجارب والأفكار الموروثة من الأجيال السابقة، ويمثل طرائق التفكير البدائى للعقل الإنسانى .

الحلم والأسطورة

درس فرويد "النفس الإنسانية" دراسة علمية، قضى فيها سنوات يعالج المرضى ويجاهد فى سبيل الكشف عن أعماق النفس وما تنطوى عليه من أخيلة وأفكار. ورأى أن الشرط الأساسى لكى يفهم الإنسان غيره من الناس فهماً صحيحاً، هو أن يبدأ بفهم نفسه ويزيل الستار الذى يحول دون إدراك النفس وكشف كنهها. لذلك عقد العزم على أن يجرى على النفس تحليلاً منهجياً متخذاً من "الأحلام" [118] مادة هذا التحليل. ذلك لأن الحلم – فى رأيه – ليس أمراً مستقلاً عن سائر أحوال النفس، بل هو يتصل بها أوثق الاتصال ويكون حلقة من حلقات الحياة

النفسية. وتكمن خطورته فى أنه يعبر عن أمور لا يسعنا حتى مجرد الشعور بها أثناء اليقظة، فهو يُظهر ما عفا عليه الزمان من الأحداث والخبرات الأولى ويبعثها أمام ناظرنا، فتتضح لنا الصلة بين ماضى الفرد وحاضره، ويستبين ما كان قد استغلق علينا فهمه من أحوال الإنسان [119]. لذلك وصفه "فرويد" بأنه الطريق الأمثل إلى أعماق النفس .

رفع "فرويد" "الحلم" إلى مستوى البحث العلمى، حيث كان – فيما مضى – امتيازاً للعرافين والمنجمين والمشعوذين؛ وكان يحظى بأهمية كبيرة فى التنبؤ بالمستقبل. لكن العلم الحديث أعرض عن هذا التفسير وأسلمه للخرافة، معلناً أن الأحلام مجرد عمليات جسمية أو نوع من التشنج يطرأ على الذهن فى حالة النوم؛ كما اعتبرها أعراضاً عصابية لم تُفسر وأفكاراً هذائية أو وسواسية تتخذ من الصور المنفصلة التى تتكون منها موضوعات لتداعى الخواطر [120]. وجاء التحليل النفسى ووصل إلى نتيجة مغايرة – إلى حد ما – أدت إلى اكتشاف التركيب الذهنى للحالم، ورأى أن الأفكار الكامنة فى الحلم هى المادة اللاشعورية التى وجدت فى النوم فرصة للوصول إلى الشعور. أما الأفكار الظاهرة فيه فهى ترجمة مبتسرة غير مفهومة تقوم بها الأنا بقصد وقاية النفس مما تثيره مادة اللاشعور من قلق وألم .

هنا حاول "فرويد" الإجابة عن عدة تساؤلات منها: هل ثمة دافع لتكوين الأحلام؟ ما الشروط التى تحدثها؟ ما الطرق التى تحولت بها خواطر الحلم (التى تزخر دائماً بالمعنى) إلى حلم (هو فى أغلب الأحيان لا معنى له) ؟.

إن الأحلام – كما رأى "فرويد" – التى يعرفها كل إنسان، قد تكون مشوشة غير مفهومة ولا معنى لها إطلاقاً، وقد يكون مضمونها مناقضاً للواقع الذى نعرفه؛ وقد نتصرف فيها كما يتصرف المجنون أو الرجل البدائى أو الطفل الصغير [121]. وذلك لأننا نقوم فى الحلم بخلع صفة الحقيقة الواقعية على مادة أحلامنا، ويمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الحلم الذى نتذكره بعد اليقظة ليس هو عملية الحلم الحقيقية؛ لكنه ستار تختفى وراءه تلك العملية. لذلك ميز "فرويد" بين مادة الحلم

الظاهرة، وأفكار الحلم الكامنة، وعرَّف العملية التى تخرج مادة الحلم الظاهرة من أفكار الحلم الكامنة بـــ "عمل الحلم" Work–Dream [122] الذى هو – فى جوهره – صياغة للعمليات الفكرية اللاشعورية [123].

وكل حلم فى مرحلة التكوين إنما يقوم – تحت تأثير اللاشعور – بمطالبة الأنا بإرضاء غريزة ما، أو بحل صراع، أو بإزالة شك أو باتخاذ قرار (فى حالة صدور الحلم من بقايا النشاط اللاشعورى). غير أن الأنا النائم شديد الرغبة فى الإبقاء على النوم، وهو يرى فى هذه المطالبة التى تنبعث فى الحلم إقلاقاً لراحته فيعمل على التخلص منها. يقول فرويد :

> **"الحلم هو ظاهرة نفسية صادقة كأصدق ما تكون الظاهرة النفسية، إنه تحقيق لرغبة مكبوتة، هو محاولة للتوفيق بين مطالب دافع مكبوت ومقاومة تبذلها قوة الرقابة فى الذات** [124].

والقول بأن الأحلام عبارة عن تحقيق رغبات قول من شأنه أن يثير الشك بسهولة، إذا تذكرنا أن كثيراً من الأحلام يتضمن أموراً مؤلمة فى الواقع، أو أنها توقظ الحالم فى حالة القلق؛ هذا فضلاً عن وجود أحلام كثيرة لا تتضح فيها مشاعر معينة. لهذا السبب عينه، عدَّل "فرويد" فى ماهية الحلم وقال: "الحلم تحقيق (مقنع) لرغبة مكبوتة" [125]. ذلك لأن الشعور المؤلم الذى يتردد فى الأحلام [126] لا يمنع أن تكون ثمة رغبة من الرغبات يريد الإنسان كتمها (أو قمعها) عن غيره من الناس، بل هناك رغبات لا يريد أن يصارح نفسه بها؛ وهذا ما يُعرف بـــ "تشويه الحلم"، أى أن تحقيق الرغبة إنما تقنع فيه إلى حد الخفاء لأن هناك نفوراً من موضوع الحلم – أو الرغبة المتفرعة عنه – ونية مبنية على كبتهما. وهكذا يرى " فرويد " أن " تشويه الحلم " هو فعل من أفعال الرقابة تمنع الدافع اللاشعورى من التعبير عن نفسه [127].

لكن ما علاقة الحلم بالأسطورة؟ يرى "فرويد" أن هناك تشابهاً فى آلية العمل بين الحلم والأسطورة، وتشابه الرموز لكليهما؛ فهما نتاج العمليات النفسية اللاشعورية. ففى الأسطورة – كما فى الحلم – نجد الأحداث تقع خارج

حدود الزمان والمكان، والبطل (كذلك صاحب الحلم) يخضع لتحولات سحرية ويقوم بأفعال خارقة، هى انعكاس لرغبات وأمانٍ مكبوتة، تنطلق من عقالها؛ بعيداً عن رقابة العقل الواعى الذى يمارس دور الحارس على بوابة اللاشعور. وعلى حد قوله :

"هناك تشابه بين أخيلة العصابين وأخيلة الجماعات والشعوب، كما نجدها فى الأساطير والقصص والحكايات الخرافية" [128].

يعتقد "فرويد" أن بعض العناصر فى الأحلام تحتفظ بمعناها الدائم، وتؤول كرموز ذات معان ثابتة تزودنا بفهم عميق لنفس الإنسان الخافية ورغباته المكبوتة. وهذه الرموز ليست مقتصرة على الأحلام، بل هى موجودة فى الأساطير والأدب الشعبى والدين والفن وفى عدد كبير من المجالات. يقول:

"إن الرمزية ليست خاصة من خواص الأحلام، بل من خواص التفكير اللاشعورى، ونجدها فى أغانى الشعب وأساطيره ورواياته المتوارثة، وفى التعبيرات الدارجة والحكم المأثورة والنكات الجارية أكثر مما نجدها فى الحلم" [129].

يستخدم الحلم، إذن، الرموز الموجودة – من قبل – فى التفكير اللاشعورى، وهو يستخدمها لأنها أكثر اتفاقاً ومقتضيات تكوين الحلم، من حيث قابليتها للتصوير(أى فى صور مرئية)؛ ولأنها أيضاً تفلت عادة من رقابة العقل الواعى. ولعل أثمن اكتشاف وقع عليه "فرويد" – طيلة بحثه النفسى – هو "أسطورة أوديب"[130] وتحليل رموزها، فهو لا يتوانى عن وصفها بالكنز الثمين الذى فسر له فروضه واستجاب لنظرياته وكشوفه .

عقدة أوديب

أشار "فرويد" فى كتابه "تفسير الأحلام" إلى "أسطورة أوديب" [131] وإلى مسرحية "سوفوكليس" التى تحمل اسمه، ورأى أن المعالجة المسرحية لهذا

obeikandl.com

الموضوع الرهيب تُعَد أمراً ملغزاً لما خلفته من أثر عنيف فى نفوس جمهور المشاهدين؛ بوصفها ظاهرة نفسية ارتبطت بـــ "تراجيديا" القدر. يقول :

"أوديب ملكاً تدخل بين ما يعرف باسم "مأسويات القدر"، ويقال إن تأثيرها المأسوى يقوم فى التضاد بين مشيئة الآلهة وبين محاولة الإنسان العبثية أن يجنب نفسه المصير الذى يتهدده" [132].

ولع "فرويد" بالكثير من أبيات تراجيديا هذه المسرحية، ورأى أنها نبعت من مادة حلمية قديمة متصلة بالاضطراب الأليم الذى ينتاب علاقة الطفل بوالديه؛ وذلك من جراء نزعاته الجنسية الأولى، التى تحولت تحت تأثير الكبت والقمع الشعورى إلى اللاشعور [133]. من هنا يتضح، أن هيكل الأسطورة العام وبنيتها إنما يتفق مع الرغبة اللاشعورية القابعة داخل النفس الإنسانية، والتى تنشأ من التعلق بمشاعر الحب والكره والخوف التى يشعر بها الطفل تجاه أبيه؛ وهو ما يسمى بـــ "عقدة أوديب" Oedipus Complex [134] ـ أى حب الطفل لأمه وكرهه لأبيه .

كتب "فرويد" يقول :

"يبدأ الصغير فى سن مبكرة يشعر بالحب نحو "أمه"، وهو حب كان فى الأصل متعلقاً بثدى الأم، كما أنه أول حالة من حالات حب الموضوع تنشأ على صورة الاعتماد على الأم. أما فيما يتعلق بالأب، فإن الصغير يقوم بتفحص شخصيته. وتبقى هاتان العلاقتان جنباً إلى جنب لفترة من الوقت حتى تأخذ الرغبات الجنسية المتجهة نحو الأم تزداد فى الشدة، ويبدو الأب كأنه يعوق تحقيق هذه الرغبات. وعن ذلك تنشأ عقدة أوديب" [135].

وعندما يتقمص الطفل شخصية الأب، يرتبط بالأم ويرغب فى التخلص من الأب لكى يأخذ مكانه. وهنا يظهر التناقض الوجدانى ـ كما يرى فرويد ـ منذ البداية، وهو أمر طبيعى فى عملية التقمص [136]. ويعبر هذا التناقض عن مضمون "عقدة أوديب" الإيجابية البسيطة عند الطفل، والتى تظهر فى علاقة التنافر والكره

والخوف نحو الأب؛ وعلاقة الحب الشديدة نحو الأم. كما توجد "عقدة أوديب" السلبية، التى تطلق على حب الطفل لأبيه وكرهه لأمه ـ وهذا هو الاتجاه الذى تسلكه البنت الصغيرة عادةً ـ ويتضح فى تقمص شخصية الأم الذى يطبع الطفلة الصغيرة بطابع الأنوثة [137].

أما "عقدة أوديب الكاملة" Complete Oedipus Complex فترجع إلى وجود الثنائية الجنسية فى طبيعة كل طفل، حيث تتوقف الصورة النهائية التى تتخذها "عقدة أوديب" على مقدار عناصر الذكورة والأنوثة الموجودة بالفطرة فى طبيعة كل فرد؛ وعلى التجارب والخبرات الشخصية التى يتعرض لها الفرد فى مرحلة الطفولة .

بناء على ذلك افترض "فرويد" أن للحياة الاجتماعية والدين أصولاً ترتكز على "عقدة أوديب"، حيث اتضح له التشابه الملحوظ بين مرض العصاب القهرى وبين الطقوس والشعائر الدينية لدى الشعوب البدائية. واكتشف ـ من خلال تحليله لمقدسات ومحارم هذه الشعوب ـ أنهم يتعاملون مع مقدساتهم كما يتعامل الصغار مع آبائهم، بمزيج من الحب والكره، والقبول والرفض، والرغبة فى القتل والانصهار فى الشخصية. لذلك نجده فى كتاب "الطوطم والتابو" [138] يقول :

> **"إننا نهتدى ـ من خلال "عقدة أوديب" ـ إلى بدايات الدين والأخلاق والمجتمع والفن معاً، وهذا يتوافق ـ بالطبع ـ مع معطيات التحليل النفسى؛ الذى يرى فى هذه العقدة نواة لعصاب الأفعال القهرية"** [139].

وقد اعتمد "فرويد" على ملاحظاته العلاجية للأطفال الصغار الذين كانوا يعانون من أنواع عديدة من المخاوف التى لا أساس لها، واقتفى أثار أحلامهم ومخاوفهم ورغباتهم (سواء الظاهر منها أو الخفى) ووجد أن بعض الأطفال يحيلون مخاوفهم وميولهم العاطفية والعدائية من الأب إلى الحيوان [140]. وعند تحليله لهذه المخاوف تبين أن الحيوان بديل للأب، بديل حول الخوف (الذى تتضمنه عقدة أوديب) من الأب إلى الحيوان؛ لذلك رأى "فرويد" أن قتل الأب هو نواة

"الطوطمية" Totemism ونقطة البداية فى نشأة الديانة .

توصل "فرويد" إلى نظريته عن أصل الحضارة من خلال تحليل "الطوطمية" [141]، حيث بين فى أربع رسائل جُمعت فى كتاب "الطوطم والتابو"، أساس العرف البدائى واسع الانتشار لهذه العقيدة [142]. فوجد أن حيوان "الطوطم" كان يعتبر مقدساً من جانب العشيرة، ومن ثم لا يجرى اصطياده أو إيذاؤه؛ والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو أن يضحى بالحيوان فى المناسبات الاحتفالية ويلتهم من جانب القبيلة برمتها. علاوة على ذلك، ذهب "فرويد" إلى أن أفراد القبيلة – فى واقع الأمر – تتبعوا أسلافهم فى تقديس حيوان "الطوطم" حيث اعتبر الحيوان الأب الأول للقبيلة.

وقد اهتم "فرويد" بدراسة "الديانة الطوطمية" عندما طالع كتاب "روبرتسون سميث" [143] "ديانة الساميين" Religion of the Semites لاسيما نظريته عن الأضحية الحيوانية عند القدامى. فقد عرض "سميث" لمفهوم "وليمة الطوطم" [144] بوصفها جزءاً رئيسياً فى "الديانة الطوطمية" حيث يُقتل حيوان الطوطم – الذى كان من قبل مقدساً – مرة كل عام فى مراسم خاصة على مرأى من جميع أعضاء القبيلة، ويلتهم لحمه؛ ثم يقام عليه الحداد بعد ذلك ويعقبه احتفال كبير. واستناداً إلى هذه الحقائق، أقام "فرويد" تاريخاً عن أصول "الطوطمية" ورأى أن القبيلة لم تكن فى الأصل أكثر من أسرة كبيرة كل النساء فيها – أى الأم والبنات – محتكرات جنسياً من جانب الأب. لكن عند لحظة تاريخية معينة اتحد الأبناء المحرومون جنسياً معاً فى ثورة ضد الأب، وذبحوه وبالفعل التهموه. وبعد ما تم قتل الأب والتهامه، وقع شىء شديد الغرابة (هو حدث بالنسبة لفرويد يميز بداية التاريخ البشرى)، فبدلاً من أن يطلقوا العنان لأنفسهم مع النساء المحررات، أحجم الأخوة عن قطف ثمار نصرهم. لقد اتفقوا – مع بعضهم البعض – على تحريم غشيان المحارم، أو حسب تعبير "فرويد"، قاموا بصياغة أول قانون أخلاقى "تابو غشيان المحارم" [145] Incest Taboo الذى أصبح عندئذ أساس المجتمع الأول للعشيرة الأخوية، وبناء عليه ظهر أول مفهوم لـــ "الزواج من خارج القبيلة" [146]. يقول "فرويد" :

"إن العصابة الأخوية، التى شقت عصا الطاعة، كانت تعتمل فيها ـ إزاء الأب ـ مشاعر متضاربة تؤلف المضمون الازدواجى للعقدة الأبوية لدى كل طفل من أطفالنا. فقد كانوا يكرهون الأب، الذى كان يعترض ـ بمنتهى العنف ـ سبيل حاجتهم إلى القوة وسبيل متطلباتهم الجنسية، لكنهم كانوا – علاوة على كرههم له ـ يحبونه ويعجبون به" [147].

اكتشف الأخوة ـ بعد قتل أبيهم ـ أنهم فى الواقع أحبوه، فراحوا يسترجعون الجانب الطيب من علاقتهم به؛ ومن ثم تخلوا عن المطالبة الجنسية بالنساء بدافع تأنيب الضمير. وأدى هذا الإحساس بالذنب إلى تحويل الأب الميت إلى إله فى شكله البشرى الحقيقى، ثم تحت قناع حيوان "الطوطم". وهكذا وجد "فرويد" فى الديانة "الطوطمية" كل رواسب الجريمة الأصلية وشعور الإنسان بالذنب أو "الخطيئة الأولى" .

اتفق "جيزا روهايم" [148] مع "فرويد" على أن الجريمة الأصلية هى الخط الفاصل بين الطبيعة والحضارة، وبين الهمجية والثقافة، ووجد فى كل أشكال النشاط الثقافى؛ وكذلك فى نفسية الفرد اختلاطاً ضخماً بين العناصر الذكرية والأنثوية والتى أطلق عليها "ازدواج الجنس" Ambisexuality. هذه العناصر قامت على "عقدة أوديب"، ونمت من خلال الانفعالات المزدوجة الخاصة بالتنظيم الاجتماعى والقيود الأخلاقية .

الأسطورة واللاشعور الجمعى

اكتشف "فرويد" المنطقة المجهولة من النفس الإنسانية، وهى منطقة "اللاشعور". وشارك باكتشافه هذا فى الدراسات الأنثروبولوجية، مركزاً على اللاشعور الفردى والرغبات المكبوتة ومركزية الجنس. وقد أخضع الأساطير للدوافع النفسية اللاشعورية، متخذاً من الشخصيات الأسطورية اللامعة عناوين لنتائج بحثه ـ كما هو الحال فى "عقدة أوديب" .

وتعاون معه ـ فى هذه الدراسات ـ تلميذه "الفرد أدلر" [149] الذى اهتم بالسلوك الفردى، ورأى أن الإنسان يحاول دائماً أن يعوض ما به من ضعف؛ وأن

يخفى شعوره بالنقص بما يبديه من مظاهر القوة والسيطرة والتعالى، وبما يلجأ إليه من وسائل وحيل لإقرار ذاته. وقد ينتج عن ذلك، أحياناً، أن يتجه بعض الناس اتجاهاً معادياً للمجتمع. ويتلخص العلاج النفسى – فى رأى أدلر – فى مساعدة المريض على معرفة "عقدة النقص" Inferiority Complex فى نفسه [150]، ومعرفة أسلوبه الخاص فى الحياة؛ ثم إرشاده إلى بعض الطرق العلمية التى تهيئ له حياة اجتماعية أكثر توافقاً (وكانت هذه هى نقطة الخلاف بينه وبين "فرويد") .

وجاء "كارل يونج" وقام بدراسات طورت نظرية "اللاشعور" تطوراً جذرياً، وأدت به إلى الانفصال عن مدرسة "فرويد" و "أدلر". فقد رأى أن "اللاشعور" الذى حدده "فرويد" لا يستوعب جميع الحالات التى تخضع للدراسة، لأنه اقتصر على منطقة الرغبات المكبوتة لدى الفرد. لكن هناك خبرات متراكمة عبر الأجيال، ضاربة فى القدم بدائية ولاشعورية؛ وهى الأساس العنصرى الموروث للبناء الكلى للشخصية، يسميها "يونج" "اللاشعور الجمعى" [151]. وعليها تبنى "الأنا" و"اللاشعور الفردى" وجميع الخبرات الفردية الأخرى. و "اللاشعور الجمعى" يحتوى، بشكل مكثف، على جميع الآثار المتعاقبة التى حددت – منذ عصور ما قبل التاريخ – التركيب النفسى للإنسان كما هو قائم الآن [152]. وتظهر هذه الآثار على شكل موضوعات أسطورية وصور ورموز، تبدو متماثلة عند جميع أجناس البشر؛ يُطلق عليها اسم "الأنماط الأولية" Archetypes [153].

تظهر "الأنماط الأولية" فى اللاشعور من خلال أشكال عديدة منها: "القناع" Persona الذى يرتديه الشخص استجابة لمقتضيات الواقع، واتفاقاً مع تقاليد المجتمع؛ وتمشياً مع ما يرتضيه الناس. والنواة التى ينمو منها القناع هى نمط أولى، وهذا النمط شأنه شأن جميع الأنماط الأولية ينشأ من خبرات الفرد و من تفاعلاته الاجتماعية. كذلك نجد "الأنيما والأنيموس" The Anima and The Animus وهما مفهومان يشيران إلى أن الذكورة والأنوثة توجد فى كل من الرجل والمرأة، فيطلق على الجانب الأنثوى فى شخصية الرجل اسم "الأنيما" Anima، أما الجوانب الذكورية فى المرأة فيطلق عليها "الأنيموس" Animus. وهذان النمطان الأوليان هما

نتاج الخبرات العضوية للرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل [154]. كما يوجد أيضاً "الظل" Shadow الذى يحتوى على النزعات العدوانية والدوافع الدنيئة البدائية التى تكمن فى أعماق النفس الإنسانية. والنمط الأولى لـ "الظل" مسئول كذلك عن ظهور السلوك غير السار، وعن الأفكار والمشاعر والأفعال المنبوذة اجتماعياً. ويؤثر "الظل" تأثيراً هداماً على الشخصية ويؤدى إلى نشوء الأمراض النفسية .

أما مفهوم "الذات" The Self فهو أكثر اكتشافات "يونج" السيكولوجية أهمية وهو يمثل قمة دراساته المتعمقة للأنماط الأولية. وهذا النمط الأولى يعبر عن نفسه عن طريق رموز مختلفة أهمها "الماندالا" Mandala [155] أى الدوائر السحرية، وهى تمثل رغبة الإنسان فى الوحدة والكلية والتكامل فى الشخصية، وتقع فى موضع بين الشعور واللاشعور وهى المنوطة بحمل كل ما هو ذات معنى أو هدف يسعى الإنسان إلى تحقيقه، ويعطى التوازن للشخصية كلها. وقد اكتشف "يونج" مفهوم "الذات" فى دراساته وملاحظاته لديانات الشرق، التى يحقق فيها البحث (عن الكلية والوحدة مع العالم عن طريق مختلف الممارسات الطقوسية كاليوجا مثلاً) تقدماً يفوق ما تحققه الديانات الغربية .

الأسطورة والنمط الأولى

اهتم "يونج" اهتماماً كبيراً بدراسة الأساطير، فهى عنده تعبيرات أساسية عن الطبيعة الإنسانية؛ لذلك نجدها متماثلة عند جميع الشعوب وفى جميع الأزمنة. وحين يفقد الإنسان قدرته على صنع الأسطورة، يفقد صلته بالقوى الإبداعية لوجوده. ولكن ما علاقة الأسطورة بالنمط الأولى؟ [156].

يرى "يونج" أن الأسطورة هى تعبير آخر عن النمط الأولى، ولكنها اتسمت بطابع خاص، صحيح أن الأسطورة تبدو وكأنها محاولة لتفسير حوادث الطبيعة كشروق الشمس وغروبها، وقدوم الربيع بكل ما يحمله من حياة خصبة جديدة، إلا أنها ـ فى نظر "يونج" ـ أكثر من ذلك، إنها تعبير عن الدراما الداخلية اللاواعية للنفس فى طريق الوصول إلى الوعى. ومن هنا تعد الأسطورة والنمط الأولى

وجهين لعملة واحدة، يشكل النمط الأولى الوجه الداخلى أو (الباطنى) للاوعى، بينما تشكل الأسطورة الوجه الخارجى الذى يظهر إلى حيز الوعى. يقول :

"إن النمط الأولى، سواء فى شكله الخارجى أو مضمونه الداخلى، يحتوى على دوافع سيكولوجية؛ هذه الدوافع تظهر ـ بشكل جلىٍ ـ فى الأساطير والحكايات الخرافية والفولكلور" [157].

ومن الأنماط الأولية التى تعتمل فى ساحة "اللاشعور" لفترة طويلة، وتؤلف عناصر دينامية فاعلة "نموذج الأم" The Mother Archetype [158]، أى رمز النشوء والنماء والحياة الطبيعية الغريزية. وقد اتفق "يونج" مع "فرويد" فى أن الطفولة تعيد ذكريات إنسان ما قبل التاريخ، حيث يرى الطفل فى أمه الصورة البدائية التى تدفئ وتغذى وتحمى. وتقترن "الأم" أيضاً بالأرض المغذية والخضرة الخصبة، والطبيعة الحنون. يقول "يونج" :

"ترمز الأم إلى نمط أولى، يدل على موطن النشأة والطبيعة المادية والجزء السفلى من الجسم (الرحم)، كما تدل على وظائف الإخصاب. لذلك فهى مثال لجميع المؤثرات الحامية والدافئة والمغذية التى اختبرها الإنسان [159].

وإذا خاف الطفل أمه بلا مبرر ظاهر، فيعتقد "يونج" أن هذه تُعد حالة خوف من النمط الأولى الكامن فى اللاوعى، وهى من بقايا آثار الجنس البشرى [160]. أما إذا زاد الخوف ـ عن الحد المعقول ـ فإن لهذا علاقة مباشرة بعقدة أوديب التى تنشأ من تراكم صور الغرائز الجنسية وكبتها فى اللاوعى. وإذا زادت المشكلة أكثر وملكت الأم مجموعة من العقد، نقلت إلى الطفل عقدها وأيقظت فيه الخوف المطابق لسيكولوجيتها ذاتها، فإذا رآها فى حلمه ساحرة شريرة؛ أو وحشاً مفترساً، فلأنها اعتادت أن تصدمه. ويقابل هذا فى الأساطير قتل الأطفال أو إخصائهم.

وبينما تستمر الصورة البدائية للأم تعتمل فى نفس الطفل بطريقة لاشعورية، وتقرر ـ بمهارة فائقة ـ علاقته بالمرأة والمجتمع وعالم الشعور؛ نجد "النموذج الأصلى للأب" يحدد علاقته بمجتمع الرجال وبعالم العقل والحكمة

والقوى المحركة فى الطبيعة. وعندما ينمو الوعى ويتقدم الطفل نحو البلوغ تنفصم عرى اتحاده اللاشعورى مع الآباء، لكن تبقى النماذج الأصلية فى ذهنه بالرغم من أنها مدفوعة إلى الخلف أى إلى اللاشعور؛ بحيث تعود إلى الظهور فى الأحلام والخيالات، التى تكشف عن الحقائق النفسية بل وتقدم أحياناً – كما يرى "يونج" – نبوءات صادقة. يقول:

"تعبر الأحلام تعبيراً مباشراً عن الفاعلية النفسية اللاشعورية التى تكمن فيها حقائق لا مهرب منها، وأحكام فلسفية عظيمة، وأوهام وخيالات وحشية؛ وذكريات وتكهنات لا عقلية" (161).

إذن الأحلام هى المادة الثرية التى تتجسد فيها الأنماط الأولية للاشعور الجمعى فى أبلغ صورها، فهى كالرموز تحدث بطريقة عفوية لا تبتدع. إنها – أى الأحلام – المدخل الرئيسى لكل معرفتنا عن الرمزية والرموز. لذلك شبه"يونج" العمل الفنى بالحلم الذى يشتق وجوده من الأرض المجهولة فى عقل الإنسان، ومن الزمن الأسطورى الذى يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ، أى عصر بداية الخلق وتضاد النور والظلمة (162).

من هنا، تركت نظرية "يونج" عن "الأنماط الأولية" و "الأساطير" و"الأحلام" أثرها الفعال فى علوم الأدب، لكن بطريقة غير مباشرة، ومن أجل أهداف أخرى لا تتصل فى جوهرها بالظاهرة الأدبية؛ وإنما ترتبط بأهداف فرضية علاجية فى المقام الأول من أجل إكمال الصورة الخاصة عن الطبيعة اللاشعورية للشخصية الإنسانية .

* * * * *

obeikandl.com